٧
المُسْلِمُ مَعَ جِيرَانِهِ

أَحْسَنُ النّاسِ مُعَامَلَةً لِجيرَانِهِ:

المسلم الحصيف الواعي أحكامَ دينه أحسنُ الناس معاملة لجيرانه، وأكثرهم بِرًّا بهم، وحَدَباً عليهم.

وَعْيُهُ هَدْيَ الإِسْلامِ في الإِحْسانِ إلى الجَارِ:

ذلك أنه يَعي هَدْيَ الإسلام الشَّرَّ وتوصياته الغنيةَ بالجار، والمكانةَ الرفيعة التي أحلّه إيّاها في سلّم العلاقات البشرية، وإنها لَمَكانةٌ ما عرفتها قبل هذا الدين شريعةٌ، ولا داناها بعدَهُ نظامٌ.

فقد أمر الله تعالى في محكم كتابه بالإحسان إلى الجار، فقال:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ . . .﴾[1].

والجار ذو القربى هو الذي تجمعك به مع الجوار آصرة النسب أو الدين، والجار الجُنُب هو الذي لا تجمعك به صلة من نسب أو دين، والصاحب بالجنب هو الرفيق في أمر حسن.

---

(١) النساء: ٣٦.

فكل مَنْ جاورك في السّكن له عليك حق الجوار، ولو لم يكن بينك وبينه وشيجة من نسب، أو رابطة من دين. وفي هذا تكريم للجار أي تكريم في شرعة الإسلام الإنسانية السمحة الغراء.

ومن هنا كانت أحاديث الرسول الكريم تَتْرَى موصية بالجار على وجه العموم، غير ناظرة إلى قرابته أو دينه، مؤكدة أهمية علاقة الجوار في الإسلام، ومنها قولُه ﷺ:

«ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بالْجارِ حَتّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»(١).

إنها لَلْمنزلةُ الكريمة العالية، يمنحها الإسلام للجار على لسان الروح الأمين جبريل، الذي ما فتىء يؤصّلها ويؤكّدها للرسول الكريم حتى حسب أنها سترفعه إلى درجة القرابة، فتجعله وارثاً مثلهم.

وقد لهج رسول الله ﷺ إزاء توصية جبريل، بالحضّ على إكرام الجار والإحسان إليه، حتى إنه لم يُخْلِ خطبته التاريخية في حجة الوداع التي اعتصر فيها أهمّ ما ينبغي قولُه للمسلمين من أن يجعل للجار فيها حيِّزاً كبيراً، لفت نظر الصحابي الجليل أبي أمامة، حتى ظنّ أيضاً أن الرسول الكريم سيورّثه، وذلك في قوله:

«سمعت رسول الله ﷺ، وهو على ناقته الجَدْعاء في حجّة الوَداع يقول: أُوصيكُمْ بالجار حتّى أكثَر، فقلتُ: إنه يُوَرِّثُهُ»(٢).

وتبلغ وصية الرسول الكريم بالجار حدّاً من الأهمية والخطورة، يجعل الإحسان إليه، والتنزّه عن أذاه، علامةً من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، ونتيجةً حتميّة من نتائجه الحسان، وذلك في قوله ﷺ:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الطبراني بإسناد جيد.

«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إلى جارِهِ، ومَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَسْكُتْ»[١].

وفي رواية للبخاري: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ...».

المُسْلِمُ الحَقُّ سَمْحٌ مَعَ جَارِهِ:

فلا بدع أن يكون المسلم الحق المستنير قلبُه وعقلُه بهَدْي هذا الدين سَمْحاً مع جاره، موطَّأَ الكنف، حسنَ العِشْرة، لطيفَ المعاملة، لا يمنعه من الاستفادة من بيته إن احتاج إلى شيء من ذلك، مستهدياً بهَدْي الرسول الكريم القائل:

«لا يَمْنَعْ جارٌ جارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً في جِدارِهِ»[٢].

يُحِبُّ لَهُ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ:

والمسلم المتفتّح البصيرة، المستهدي بنور دينه السمح، رقيقُ القلب، يَقِظ الفكر، لَبِق، مرهَف، يحسّ بإحساس جاره، يفرح لفرحه، ويألم لألمه، يحب له ما يحب لنفسه، أخْذاً بقول الرسول الكريم:

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٣].

وفي رواية لمسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال: «والذي نَفْسي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ عبدٌ حتّى يُحِبَّ لِجَارِهِ، أو قالَ: لأَخِيهِ، ما يحبُّ لِنَفْسِهِ».

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

ولا يغيب عنه أن يتعهّد جيرانه المُعْسِرين كلما انبعثت روائح الطبخ والشواء من منزله، ويعزّ عليه أن يتأذّى جيرانه المملقون من روائح قدره أو شوائه، فتثور في نفوسهم الشهوة إلى الطعام، وهم غير قادرين على تحصيله، وقد يكون بينهم الصغير القاصر، واليتيم البائس، والأرملة المسكينة، والشيخ العاجز، ذلك أن المسلم الحق متيقظ دوماً إلى روح التكافل الاجتماعي التي غرسها رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين إذ قال في حديثه لأبي ذر:

«يا أبا ذَرّ، إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فأَكْثِرْ ماءَها، وتَعاهَدْ جيرانَكَ»[١]. وفي رواية: «إذا طَبَخْتَ مَرَقاً فأَكْثِرْ ماءَهُ، ثم انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جيرانِكَ فأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ»[٢].

إن المسلم الصادق لا يحتمل وجدانه المرهف أن يكون جاره في ضيق وفاقة وعُسْر، وهو في بحبوحة من العيش، منعّم، مُرَفّه. وكيف يحتمل وجدانُه الذي أرهفه الإسلام هذه المفارقة بينه وبين جاره، وهو يسمع قولَ الرسول الكريم:

«ما آمَنَ بي مَنْ باتَ شَبْعَانَ، وجارُهُ جائِعٌ إلى جَنْبِهِ، وهُوَ يَعْلَمُ»[٣].

وقولَه: «لَيْسَ المُؤْمِنُ الّذِي يَشْبَعُ، وجارُهُ جائِعٌ»[٤].

شَقَاءُ الإِنْسَانِيَّةِ بِسَبَبِ غِيَابِ الْمُسْلِمِ وَأَخْلاقِهِ:

من هنا ندرك أن الشقاء الذي حاق بالإنسانية في كل مكان، إنما كان بسبب غياب المسلم الحق عن مسرح الحياة الموجِّهة، وتواري مبادىء

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الطبراني والبزّار بإسناد حسن.

(٤) رواه الطبراني وأبو يعلى، ورجاله ثقات.

الإسلام الإنسانية العادلة خلف ركام المبادىء الوضعية المتخلّفة، التي لم تجنِ منها الإنسانية سوى البؤس والفاقة والاستغلال والجوع والعري في عصر الفضاء، عصر الصواريخ والأقمار الصناعية وصعود الإنسان إلى القمر؛ فلقد أعلنت منظمة الأغذية والزراعة العالمية التابعة للأمم المتحدة عام ١٩٧٥ أن هناك ما بين عشرين إلى مئة مليون شخص في أفريقيا وآسيا يواجهون احتمال الموت جوعاً خلال السنوات القليلة القادمة، وأن الوضع إذا استمرّ على ما هو عليه فإنه يهدّد بموت ثلاثة ملايين نسمة كل أسبوع جوعاً، وأن هناك ما بين ٤٦٠ مليوناً وألف مليون شخص يعانون سوءَ التغذية.

وتناقلت وكالات الأنباء في العام نفسه قصة، مفادها أن فتاة أوروبية تطوعت للعمل ممرضة في إحدى المناطق الأفريقية التي يعاني سكانها سوء التغذية المزمنة، وكانت النتيجة أنها أُصيبت بحالة انهيار عصبي شديد كاد يودي بها إلى الجنون المطبق، وذلك بعد أن شاهدت صراعاً دامياً بين بعض الأطفال الأفريقيين الذين دفعهم الجوع إلى الاقتتال الوحشي من أجل الفوز بقطعة من ثمر «المانجو»، ولم يتوقف القتال إلّا بعد أن فقأ أحد الأطفال عين زميله، ولم يكن أكبر المقاتلين سنّاً يتجاوز الثامنة من عمره. وكم سبّب هذا الجوع العمى الكامل بسبب افتقار الجسم الدائم إلى الفيتامينات، وأضوى أجسام الأطفال، فاستحالت إلى هياكل عظمية، وفقدت مناعتها من الأمراض، وأصبحت بين فكّي الموت!

وفي الوقت الذي يزحف فيه الجوع على آسيا وأفريقيا نجد العالَمَ الآخَر، عالم الغرب، عالم الأثرياء الذين يكوّنون ٢٠٪ فقط من سكان العالم، ويستحوذون على ٨٠٪ من الثروة العالمية، يعمل أهلُه بجنون على الاحتفاظ بهذه الثروة. فلقد أحرقت البرازيل في عام ١٩٧٥ آلاف الأطنان من البنّ محافظة على مستوى سعره العالمي، ودفعت دول السوق الأوروبية

المشتركة خمسين مليون دولار لتدمير الأغذية والمنتوجات الزراعية الفائضة عن حاجتها لحفظ أسعارها مرتفعة، وتنفق أمريكا ثلاثة آلاف مليون دولار سنوياً تعويضات على عدم إنتاج الأغذية، لتبقى محتفظة بأسعارها العالية! ويقتل المزارعون الأمريكيون عشرات الألوف من العجول، ويدفنونها أرضاً، محافظة على مستوى سعر اللحم، في حين مات في العام نفسه عشرات الألوف من الجوع في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية!

ألا ما أبعدَ الفرقَ بين حضارة الإسلام الإنسانية التي لم ترضَ للإنسان الفقير أن يتأذّى بريح قِدْر جاره المثير لشهوة الطعام، وبين حضارة الغرب المادية التي تهدّد ملايين الأنفس بالموت جوعاً!

وما أشقَى الإنسانيّةَ اللاهثة وراء النظم الماديّة، شرقيِّها وغربيِّها، متخبّطةً في داجي جاهلية حالكة السواد!

وما أعظم مسؤوليةَ المسلمين في حمل مشعل النور الذي يوقَد من شجرة مباركة، لا شرقيّة ولا غربيّة، فبه وحده تتبدّد حنادس الجاهلية، وبنوره وحده تستضيء العقول والقلوب، وتفيء الإنسانية إلى الرشد والهداية والأمن والرخاء.

المُسْلِمُ يُحْسِنُ إلى جَارِهِ قَدْرَ طَاقَتِهِ:

والمسلم الواعي هَدْيَ دينه الحنيف يندفع في الإحسان إلى جاره على قدر طاقته، ولا يحقر القليل من الإحسان يسديه إلى جاره، كما يفعل بعض الجهَلَة، إذ يستقلّ المعروف فيمتنع عن تقديمه لجاره، فيحرم نفسه، ويحرم جاره من الخير، وهذا ما نبّه إليه رسول الله ﷺ النساء خاصة؛ لأنهنّ كثيراً ما يستَحْيين من تقديم القليل من المعروف لجاراتهنّ، فقال:

«يا نِساءَ المُسْلماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لِجارَتِها ولَوْ فِرْسِنَ شاةٍ»[١] وفِرْسِنُ الشَّاةِ: ظِلْفُها، وهو كناية عن القلة، أي لا تحقرنّ جارة أسدت إلى جارتِها شَيْئاً من معروف، ولو كان قليلاً كفِرْسِن شاة، فهو خير من العدم، والله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[٢]، وقال رسول الله ﷺ: «اتَّقوا النارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[٣].

على أن هذا الحديث الشريف، بما أفاد سياقُه من عموم، يحتمل أن يكون نهياً للجارة المُعطاة أيضاً عن الاحتقار، ويكون معناه عندئذ: لا تحقرنّ جارةٌ معروفاً أسدته إليها جارتُها، ولو كان هذا المعروف قليلاً كفِرْسِن شاة، بل ينبغي أن تشكرها عليه، فبالشكر على المعروف تشيع الألفة بين الجيران، وتنمو المودّة ويربو التكافل والتراحم في حياتهم، هذا إلى ما في شكر الإنسان على المعروف من خلق إسلامي أصيل، أكّده رسول الله ﷺ، وحضّ عليه بقوله:

«لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النّاسَ»[٤].

يَخُصُّ بِإِحْسَانِهِ جِيرانَه المُسْلِمِينَ وَغَيْرَ المُسْلِمِينَ:

ولا يقتصر المسلم الواعي في إحسانه لجيرانه على الأقربين منهم أو المسلمين، بل يتعدّاهم إلى جيرانه من غير المسلمين؛ ذلك أن سماحة الإسلام تمتدّ وتتّسع، حتى إنها لتشمل الناس جميعاً، على اختلاف أديانهم ونِحَلِهم؛ فهذا عبد الله بن عمرو الصحابي الجليل تُذبَح له شاة، فيسأل غلامه: «أهديتَ لجارنا اليهودي؟ أهديتَ لجارنا اليهودي؟ فإني سمعتُ

---

(١) متفق عليه.

(٢) الزلزلة: ٧.

(٣) رواه البخاري.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

رسولَ الله ﷺ يقول: «ما زالَ جِبْريلُ يُوصيني بالجارِ حتّى ظنَنْتُ أنّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[١].

ومن هنا كان أهل الكتاب يعيشون في جوار المسلمين، آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ومعتقداتهم، ينعمون بحسن الجوار، وكرم المعاملة، وحرّيّة العقيدة، يشهد لذلك قيام كنائسهم منذ أقدم العصور في قرى مسلمة معلّقة فوق رؤوس الجبال، وحولها آلاف المسلمين، يحيطون جيرانهم من أهل الكتاب بالرعاية والحماية والبرّ والعدل، جَرْياً على أدب القرآن القائل:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٢].

يُقَدِّمُ في إحْسانِه الأقربَ فالأقربَ:

ولا يغيب عن بال المسلم الواعي التنظيمُ الدقيقُ الذي وضعه الإسلام حينما صنّف الإحسان للجيران، فأمر بتقديم الأقرب فالأقرب، مراعياً قوة العلاقة بين الجارين المتلاصقين، وما يكون بينهما عادةً من حساسيات يجدر مراعاتها، استبقاءً للألفة والمودّة والوئام.

فعن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، إنّ لي جارَيْنِ فإلى أيِّهما أُهْدي؟ قال: «إلى أَقْرَبِهما باباً»[٣].

ولقد وعى الصحابةُ الكرام هذا الهَدْيَ النبوي الرفيع في معاملة الجيران، فكانوا لا يخصّون ببرّهم وإكرامهم الجار الأقصى قبل الأدْنى، وفي

---

(١) متفق عليه.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

ذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «ولا يَبْدأْ بِجارِه الأَقْصَى قبلَ الأَدْنَى، ولكن يبدأ بالأَدْنَى قبلَ الأَقْصَى»[١].

على أن هذا التصنيف في الإحسان للجيران لا يلوي عنق المسلم، ولا يصرف نظره عن الجيران الأبعدين عن مسكنه؛ فكلُّ مَنْ كانَ في دائرة بيته داخلٌ في ذمة الجوار، وله عليه حق الجار، وما ذلك التصنيف في تقديم الجار الأقرب إلاّ تصنيف تنظيميّ، راعى فيه الرسول الكريم نفسية الجار الأقرب، لما يكون بينهما عادة من احتكاك وتعامل واتصال مستمر.

المُسْلِمُ الحقُّ خيرُ جارٍ:

والإحسان إلى الجار شعور أصيل عميق في وجدان المسلم الصادق، وصفة مميّزة له عند الله والناس؛ ذلك أن المسلم الحق الواعي الذي رضع لبان الإسلام، وخالطت قلبَه بشاشةُ تعاليمه السمحة، لا يستطيع إلاّ أن يكون خير صاحب في الأصحاب، وخير جار في الجيران، وهو مَنْ عناه رسول الله ﷺ بقوله:

«خَيْرُ الأَصْحابِ عندَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصاحِبِهِ، وخَيْرُ الجيرانِ عندَ الله خَيْرُهم لِجارِهِ»[٢].

ومن هنا جعل الإسلام من سعادة المرء المسلم الجار الصالح؛ فجواره قرة عين لجاره، ومبعث سعادة وهناءة وارتياح وأمن وطمأنينة، وحَسْبُ الجار الصالح تكريماً ورفعة أن يجعله رسول الله ﷺ ركناً من أركان السعادة في حياة المسلم فيقول:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) رواه الترمذي بإسناد صحيح.

«مِنْ سَعادَةِ المَرْءِ المُسْلِم في الدنيا الجارُ الصّالِحُ، والمَنْزِلُ الواسِعُ والمركبُ الهَنيءُ»[١].

ولقد بلغ من تقدير السلف للجار الصالح أنهم كانوا يعدّون جواره نعمة لا تقدّر بمال، وغنيمة لا يعدلها عَرَض من أعراض الدنيا. ومما يروى في ذلك أن جار سعيد بن العاص ساوم على مئة ألف درهم في داره، ثم قال للمشتري: هذا ثمن الدار، وبكم تشتري جوار سعيد؟ فلما علم سعيد بذلك بعث إليه بالثمن واستبقاه في داره.

هذه هي منزلة الجار في الإسلام، وهذه هي خلائق الجار المسلم الصالح، وهذه هي صفحته المشرقة الغرّاء، فما هي صفحة جار السُّوء؟

جارُ السُّوءِ وصفحتُه السَّوداءُ:

إنها لصفحة قاتمة كابية كالحة معتمة، لا يستطيع الوجدان المسلم المرهف أن يتملاّها دون أن يهتزّ فَرَقاً، ويمتلىء هلعاً ورعباً وكراهية لجار السوء.

جارُ السُّوءِ إنْسانٌ عُرِّيَ مِنْ نِعْمَةِ الإيمان:

إنه إنسان عُرِّيَ من نعمة الإيمان، أكبرِ نِعَمِ الخالِقِ على خلقه، ورأسِ كل فضيلة في هذه الحياة، وقد أكّد رسول الله ﷺ انسلاخ هذه النعمة عن جار السوء تأكيداً لا هوادة فيه ولا تساهل ولا لين فقال:

«واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ»، قِيلَ: مَنْ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «الّذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ[٢]»[٣].

---

(١) رواه أحمد والحاكم بإسناد صحيح.

(٢) البوائق: الغوائل والشرور.

(٣) متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ».

فأكبِرْ بها من جريمة، يرتكبها جار السوء في حق جاره، إذ يسيء إليه، حتى إنها لتخرجه من نعمة الإيمان، وتحرمه من دخول الجنان!!!

وإن المسلم الحق الواعي الحصيف لَيصغي إلى مثل هذه النصوص بقلبه المفتوح وذهنه اليقظ، فلا يدور له في خَلَد أن يكون يوماً مع أحد من جيرانه على خصام ومشاحنة وكيد؛ لأن ذلك يطيح بإيمانه، ويودي بآخرته، وهل بعد خسارة الإيمان والدار الآخرة من خسارة، ينهلع لها قلب المسلم التقي، ويهتزّ كيانه، ويطير صوابه؟.

جارُ السُّوءِ إنْسانٌ حَبِطَ عمَلُه:

ولا غرو أن تأتي النصوص بعد ذلك تعلن أن جار السوء إنسان حبط عمله، فما تنفعه مع أذى جاره طاعة، ولا يُرْفَع له عمل صالح؛ ذلك أن العمل الصالح في الإسلام يرتكز دوماً على قاعدة الإيمان، وجار السوء لا إيمان له بنصّ الحديث السالف الذكر؛ فبدهيّ جداً أن لا يقبل الله منه عملاً صالحاً مهما بلغ، بل يمحقه محقاً، ولو أفنى فيه بياض أيامه وسواد لياليه.

قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن فلانةً تقومُ الليل، وتصومُ النهار، وتفعلُ، وتَصَدَّقُ، وتُؤْذِي جيرانَها بلسانها. فقال رسول الله ﷺ: «لا خَيْرَ فيها، هيَ مِنْ أَهْلِ النّارِ». قالوا: وفلانةٌ تُصلّي المَكتوبَةَ، وتَصَدَّقُ بأثوار[1]، ولا تُؤْذِي أحداً، فقال رسولُ الله ﷺ: «هيَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[2].

وجار السوء من العواقر التي حدَّدها رسول الله ﷺ بقوله:

---

(١) الأثوار: جمع ثور، وهي قطعة من اللبن الجامد المستحجر.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

«ثَلاثةٌ مِنَ العَواقِر: إمامٌ إنْ أحسَنْتَ لَمْ يَشْكُرْ، وإنْ أسَأْتَ لم يَغْفِرْ، وجارُ سوءٍ إنْ رَأى خَيْراً دَفَنَهُ، وإنْ رَأى شَرّاً أذاعَهُ، وامْرَأةٌ إنْ حَضَرْتَ آذَتْكَ، وإنْ غِبْتَ عنْها خانَتْكَ»[١].

ومن هنا ترتسم في مخيّلة المسلم التقي الواعي صورة جار السوء البشعة، كما وصفها رسول الله ﷺ، فإذا هو منها بعيد جدّ بعيد.

المُسْلِمُ الحقُّ يَحْذَرُ مِنَ الوُقُوعِ في خَطِيئةٍ معَ جارِهِ:

ويحذر المسلم الحق من الوقوع في إثم أو خطيئة مع جاره على وجه الخصوص؛ ذلك أن الإثم مع الجار أشدُّ وقعاً، وأفدحُ جريمةً مع سواه، وذلك مصداق قول الرسول ﷺ إذ سأل أصحابه عن الزنا، فقالوا: حَرامٌ، حرَّمهُ اللّهُ ورسولُه، فقال:

«لَأنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أنْ يَزْنِيَ بامْرَأةِ جارِهِ». وسَألَهمْ عَنِ السَّرِقة، فقالوا: حرامٌ، حرَّمها الله عزّ وجلّ ورسولُه، فقال: «لَأنْ يَسْرِقَ مِنْ عَشَرَةِ أهْلِ أبْيَاتٍ أيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أنْ يَسْرِقَ مِنْ بَيْتِ جارِهِ»[٢].

إن للجار في الإسلام لَحُرْمَةً مَصُونةً، لم تعرفها قوانين الأخلاق، ولا شرائع البشر، بل إن تلك القوانين والشرائع الوضعية لتستمرىء العبث بحُرمة الجار وعِرْضِه، إذ غالباً ما يكون العبث بعرض الجار أسهل تناولاً، وأقلّ كلفة، وأسنح فرصة من العبث بأعراض غيره. وما شاعَتْ فينا تلك الأغاني المائعة التي تصف جار الشبّاك وغيره إلّا حينما زايَلتنا أخلاقُ الفتوّة والإيمان، وغَشِيَتْنا غَواشٍ من ليل التقليد وموجات الغزو الفكري والحضاري، فبات الفتى الأرعن الرخيص فينا يتغنّى بجارته ويتغزّل بها، في

---

(١) رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ورجاله ثقات.

حين لم يُعرَف هذا عنا في جاهليتنا، بَلْهَ إسلامنا، إذ كان شاعرناالشهم الغيور على الأعراض يقول حينما يصادف جارته[١]:

وأَغُضُّ طَرْفِيَ ما بَدَتْ ليَ جارَتي حتّى يُواريَ جارَتي مَأْواها

وقال الشاعر الأموي مِسْكِين الدارميّ:

ناري ونارُ الجارِ واحِدَةٌ وإليهِ قَبْلي تُنْزَلُ القِدْرُ
ما ضَرَّ جاراً لي أُجاوِرُهُ ألَّا يكونَ لِبابِهِ سِتْرُ
أَعْمَى إذا ما جارَتي بَرزَتْ حتّى يُغَيِّبَ جارتي الخِدْرُ

ولقد نَمَّى الإسلام هذا الخلقَ الإنساني النبيل فينا، إذ حشد تلك النصوص الضخمة في رعاية الجار، وصيانة عرضه، والحفاظ على شرفه، وستر عورته، وسدّ خَلَّته[٢]، وغضّ البصر عن محارمه، والبعد عن كل ما يريبه ويسيء إليه.

فلا بدع أن يكون المسلم الحق الصادق خير جار عرفته المجتمعات البشرية في كل آن ومكان.

إن المسلم المتفتح الذهن، اليقظ البصيرة، المرهف الإحساس، الواعي أخلاق دينه وتوجيهاته الاجتماعية الراقية نحو جيرانه، ليحسب ألف حساب لخصومة قد تستعر بينه وبينهم لسبب من الأسباب؛ ذلك أن تحذير رسول الله ﷺ من مخاصمة الجيران لا يبارح سمعه:

«أوّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ جارانِ»[٣].

لا يُقَصِّرُ في إسْداءِ المَعْرُوفِ إلَيْه:

بل إن المسلم الراقي في إسلامه، لا يدّخر وسعاً في إسداء المعروف

(١) البيت لعنترة، وهو في ديوانه بتحقيق المولوي ص: ٣٠٨.

(٢) أي حاجته.

(٣) رواه أحمد والطبراني بإسناد حسن.

لجاره، فيفتح له باب الرعاية والودّ والإكرام على مصراعيه، محاذراً أن يقصّر في واجبه نحوه، فيصدق عليه ما بيّنه الرسول الكريم في شأن الجار الكَنود الكزّ قليل المعروف في قوله:

«كَمْ مِنْ جارٍ مُتَعَلِّقٍ بجارِهِ يومَ القِيَامَة، يقولُ: يا رَبِّ، هذا أَغْلَقَ بابَهُ دُوني، فمنَعَ مَعْروفَهُ»[١].

فيا لَسوءِ الموقف! ويا لَخجلةِ الجار الضنين بمعروفه على جاره يوم الأشهاد!

إن المسلمين في نظر الإسلام بناء سامق متراصّ، لَبِناتُه أبناء هذه الأمة، وكل لَبِنة ينبغي أن تكون متينة متماسكة، شديدة الارتباط باللبنات الأخرى، ليتوافر للبناء تماسكه وقوته وصموده، وإلّا فإنه يتعرض للوهن والتداعي والانهيار.

ومن هنا أحاط الإسلام لَبِناته برباط وثيق من الزاد الروحي، يحفظ تماسكَها وتَساندَها ومقاومتها، ليبقى بناء المسلمين قوياً، لا تزعزعه عوارض الأحداث، ولا يهزّ من كيانه عاتي الأعاصير.

وما أروع التمثيل النبوي لتماسك المسلمين وتكافلِهم وتساندهم في قول الرسول الكريم:

«المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِن كالْبُنْيانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»[٢].

وقوله:

«مَثَلُ المُؤْمِنِينَ في تَوادِّهِمْ وتَراحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الواحد، إذا اشتَكى منهُ عُضْوٌ تَداعَى لَهُ سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»[٣].

إن ديناً يحرص على تماسك أفراد الأمة هذا التماسك العجيب لَبَدَهيٌّ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد. (٢) متفق عليه. (٣) متفق عليه.

أن يوثِّقَ علاقة الجار بجاره، ويقيمَها على أساس ثابت ركين من المودّة والبرّ والتكافل وحسن المعاملة.

صَبُورٌ عَلَى هَنَاتِه وأَذَاهُ:

لهذا كله، كان المسلم المستنير بهَدْي دينه صبوراً على جاره، لا يستشيط غضباً إن بدرت منه هَنَةٌ من الهَنات، ولا يحاسب جاره على زلّة زلّها، أو تقصير وقع فيه، يعفو ويصفح عنه، محتسباً ذلك كلَّه في جنب الله، واثقاً أن هذا الصفح وذلك العفو لا يضيعان عند الله، بل إنهما ليكسبانه محبّته ورضوانه، يشهد لذلك حديث أبي ذر حينما لقيه مطرِّف بن عبد الله، فقال له: يا أبا ذَرّ، كان يبلغني عنك حديثٌ، وكنتُ أشتَهي لقاءَك. قال: لِلَّهِ تبارك وتعالى أبوكَ! قد لقيتَني، قلتُ: حديثاً بلغني أن رسول الله ﷺ حدّثك، قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يُحِبُّ ثلاثةً ويُبْغِضُ ثلاثةً». قال: فما إخالُني أكذبُ على رسول الله ﷺ، قلتُ: فَمنْ هؤلاء الثلاثةُ الذينَ يحبُّهمُ الله عزّ وجلّ؟ قالَ: «رجلٌ غَزا في سَبيلِ الله صابِراً مُحْتَسِباً، فقاتلَ حتى قُتِلَ، وأنتمْ تجدونَه عندكم في كتاب الله عزّ وجلّ، ثم تلا: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يُقاتِلونَ في سبيلِهِ صَفّاً كأنَّهمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾، قلتُ: ومَنْ؟ قال: «رجلٌ كانَ لَهُ جارُ سُوءٍ يُؤْذيه، فصَبَرَ على أذاهُ حتّى يَكفِيَهُ اللَّهُ إيّاهُ بِحياةٍ أو مَوْتٍ...»[1].

لا يُقَابِلُ إِسَاءَةَ جَارِهِ بِمِثْلِهَا:

لقد كان من هَدْي هذا الدين الذي بسطه رسول الله ﷺ للصحابة ألّا يقابل الجارُ جارَه بالسوء، بل يصبر على أذاه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، عسى أن يرعويَ من نفسه، ويكفَّ عن الأذى، حين يرى جارَه لا يقابل سيئَته بمثلها، بل يتجمّل بالصبر والحلم والأناة، وهذا لعمري من أسمى الأخلاق

(١) رواه أحمد والطبراني بإسناد صحيح.

وأنبلها، وأبرع الأساليب النفسية التربوية في اقتلاع جذور السوء من بعض النفوس.

أتى محمد بن عبد الله بن سلاّم رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: آذاني جاري، فقال: «اصْبِرْ»، ثم عاد إليه الثانية، فقال: آذاني جاري، فقال: «اصْبِرْ»، ثم عاد الثالثة، فقال: آذاني جاري، فقال: «اعْمِدْ إلى مَتاعِك فَاقْذِفْهُ في السِّكَّةِ، فإذا أَتَى عَلَيْكَ آتٍ، فقُلْ: آذاني جاري، فَتَحَقَّقُ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ، مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله والْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ. . . .»[1].

يَعْرِفُ حَقَّ جَارِهِ عَلَيْه:

بهذا الهَدْي النبوي العالي، وتوجيهاته السامية في حسن الجوار يعرف المسلم التقي الواعي حق جاره عليه في كل آن، فإذا هو عون له في الشدائد، وبهجة في الرخاء، يأسَى لأساه، ويفرح لما يسرّه ويرضيه، إن افتقر برّه وأسعفه، وإن ألمّ به مرض عاده وواساه وأعانه، وإن وافاه الأجل شيّعه وواسى أهله وأحسن إليهم، ولا يغيب عن باله قطُّ مراعاة شعور جاره وشعور أسرته، والبعدُ عما يخدش هذا الشعورَ أو يؤذيه من قريب أو بعيد.

هذه نظرة الإسلام العالية للجار، وتلك تعاليمه الراقية السمحة فيه لكل مسلم مهتدٍ إلى حقيقة إسلامه، مستضيءٍ بنور هَدْيه، مطبّقٍ أحكامَه على نفسه وعلى أسرته.

فهل من عجب ــ بعد هذا كله ــ أن يكون المسلم الصادق أفضلَ جار عرفته المجتمعات البشرية؟!

---

(١) حياة الصحابة ٣/٥٠.